

العِلْم

□ العلم □

العلم جمال لا يخفى ، ونسب لا يُجفَى ، بعيد المرام ، لا يصاد بالسهام، ولا يقسم بالأزلام ، ولا يُرى في المنام ، ولا يُورث عن الأعمام ، ولا يكتب للغلام .

فتوسل إليه بافتراش المدر ، واستناد الحجر ، وإدمان السهر ، وكثرة النظر ، وإعمال الفكر ، ومتابعة السفر ، وركوب الخطر .

بحر لا يخوضه المُلّاح ، ولا تطيقه الألواح ، ولا تهيّجه الرياح .

جبل لا يُتسنّم إلا بخطى الفكر ، وسماء لا تصعد إلا بمعراج الفهم ، ونجم لا يلمس إلا بيد المجد ، لا يصلح إلا للغرس ، ولا يغرس إلا في النفس ، ولا يسقى إلا بالدرس .

قال ﷺ : « الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله وما والاه ، وعالمًا أو متعلمًا »(١).

وقال ﷺ : « سيأتيكم أقوام يطلبون العلم ، فإذا رأيتموهم فقولوا لهم : مرحبًا بوصية رسول الله وأفتوهم »(٢).

وقال ﷺ : « فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم »(٣).

وقال ﷺ : « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب »(٤).

---

(١) حسن : رواه ابن ماجة عن أبي هريرة ، ورواه الطبراني في الأوسط عن ابن مسعود ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٣٤٠٨ .

(٢) حسن: رواه ابن ماجة عن أبي سعيد، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥٤٥.

(٣) صحيح : رواه الترمذي عن أبي أمامة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٠٨٩ .

(٤) صحيح : رواه أبو نعيم في الحلية عن معاذ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٠٨٨.

وقال ﷺ : « فضل العلم أحبّ إلي من فضل العبادة ، وخير دينكم الورع »(١).

وقال ﷺ : « معلم الخير يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر »(٢).

وقال ﷺ : « من جاء مسجدي هذا لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلمه ، فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله، ومنْ جاء لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره »(٣).

وقال ﷺ: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العالم رضًا بما يطلب»(٤).

وقال ﷺ : « إن الله وملائكته حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير »(٥).

والعلماء سرج للناس ومصابيح في الدنيا والآخرة ، أعلى من القمرين والنجوم ، مع أنها أرفع وأنور في المشارق والمغارب ؛ لأنها يحجبها الغمام ، ونور العلم لا يحجبه سبع سموات ، والشمس تغيب ليلًا ، والقمر يخفى نهارًا ، والعلم لا يغيب ليلًا ولا نهارًا ، بل هو هو ، وهو في الليل آكد ﴿ **إن ناشئة الليل هي أشد وطئًا وأقوم قيلا** ﴾ [المزمل : ٦] .

---

(١) صحيح : رواه البزار والطبراني في الأوسط والحاكم عن حذيفة ، والحاكم عن سعد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٤٠٩٠ .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الأوسط عن جابر ، والبزار عن عائشة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٧٥٩ .

(٣) صحيح : رواه ابن ماجة والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم٦٠٦٠ .

(٤) صحيح : رواه الطيالسي عن صفوان بن عسال ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٩٥٢ .

(٥) صحيح : رواه الطبراني في الكبير والضياء عن أبي أمامة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٨٣٤ .

والقمران يفنيان والعلم لا يفنى ، والقمران ينكسفان والعلم لا ينكسف ، والقمران تارة يضران وتارة ينفعان ، والعلم ينفع ولا يضر بشرطه .

والقمران في السماء زينة لأهل الأرض ، والعلم في الأرض زينة لأهل السماء ، وهما في الفوق ويضيئان ما تحت ، والعلم في قلب المؤمن وهو في التحت ، ويضيء ما فوقه وتحته .

وبهما ينكشف وجود الخلق ، وبالعلم ينكشف وجود الخالق .

وضَوْءهما يقع على الوليّ والعدوّ ، والعلم ليس إلا للولي .

وشعاع الكواكب إلى أسفل ، وشعاع العلم يصعد إلى العلو .

والكواكب تطلع من خزانة الفلك ، والعلم يطلع من خزانة الملك .

والكواكب علامة ، والعلم كرامة .

والكواكب موضع نظر المخلوقين ، والعلم موضع نظر رب العالمين .

والكواكب نفعها في الدنيا ، والعلم نفعه في الدنيا والآخرة .

والشمس تسوّد الأشياء والعلم يبيضها .

والشمس تحرق ، والعلم ينجي .

والقمر يبلي الثياب ، والعلم يجدد المعارف لأولي الألباب .

وإنما كانوا كالمصابيح في الآخرة ؛ لأن الناس يحتاجون إلى العلماء في الموقف للشفاعة بل وبعد الدخول ، فينتفع بهم فيها كالمصابيح ولذا يقال : إن ذات العالم تكسى نورًا يضيء كالمصباح حقيقة ، ألا ترى أن هذه الأمة تدعى غرًّا محجلين من آثار الوضوء ، فالعالم يتميَّز على آحاد المؤمنين بأن تصير جثته كلها مضيئة ، فنعمة العلم من أفخر النعم وأجزل القسم ، ومن أوتيه ، فقد أوتي خيرًا كثيرًا[1].

من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا :

قال رسول الله ﷺ : « من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك الله به

---

(١) فيض القدير (١٠٧/١) .

طريقًا من طرق الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ، ومن في الأرض ، والحيتان في جوف الماء ، وإن فضل العالم على العابد كفضلِ القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ، ولا درهمًا ، إنَّما ورَّثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر »(١).

وقال رسول الله ﷺ : « من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا ، سهَّل الله له طريقًا إلى الجنة »(٢).

وقال ﷺ : « ما خرج رجلِ من بيته يطلب علمًا إلا سهّل الله له طريقًا إلى الجنة »(٣) .

قال المناوي :

« من سلك طريقًا » حسية أو معنوية ، ونكّره ليتناول أنواع الطريق الموصلة إلى تحصيل أنواع العلوم الدينية .

والمعنى سهل الله له بسبب العلم طريقًا من طرق الجنة ، وذلك لأن العلم إنما يحصل بتعب ونصب ، وأفضل الأعمال أحزمها ، فمن تحمل المشقة في طلبه سهلت له سبل الجنة سيما إن حصل المطلوب ، قال ابن جماعة : والأظهر أن المراد أن يجازيه يوم القيامة بأن يسلك به طريقًا لا صعوبة له فيه ولا هول ، إلى أن يدخله الجنة سالمًا ؛ فأبان أنّ العلم ساعد السعادة ، وأسّ السيادة ،

---

(١) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، والنسائي ، والترمذي ، وابن ماجة ، وأبو داود ، وابن حبان عن أبي الدرداء وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٧٣ ، تخريج الترغيب (٥٣/١) .

(٢) صحيح : رواه الترمذي عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٧٤ .

(٣) صحيح : رواه الطبراني في الأوسط عن عائشة ، ورمز السيوطي لحسنه ، قال المناوي : وليس كما قال فقد ضعفه الهيثمي بأن فيه هاشم بن عيسى وهو مجهول وحديثه منكر انتهى ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٤٩٣ .

والمرقاة إلى النجاة في الآخرة ، والمقوم لأخلاق النفوس الباطنة والظاهرة ، فهو نعم الدليل ، والمرشد إلى سواء السبيل ، وتقديم الظرفين للاختصاص ؛ لأن تسهيل طريق الجنة خاص بالله ، وغيره في مقابلته كالعدم ؛ لأنه في حقه غير مفيد ، وكذا بالنسبة لسببه ، فإن غير هذا السبب من أسباب التسهيل كالعدم ؛ لأنه أقوى الأسباب المسهلة ، وفيه حجة باهرة على شرف العلم وأهله في الدنيا والآخرة ، لكن الكلام في العلم النافع لأنه الذي يترتب عليه الجزاء المذكور كما تقرر[١].

من كتم علمًا :

قال رسول الله ﷺ : « ما من رجل يحفظ علمًا فكتمه ، إلّا أتى يوم القيامة ملجمًا بلجام من نار »[٢].

وقال ﷺ : « مَنْ سُئل عن علم فكتمه ، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار »[٣].

قال المناوي :

« من سئل عن علم » علمه قطعًا ، وهو علم يحتاج إليه سائل في أمر دينه ، وقيل : ما يلزم عليه تعليمه كمريد الإسلام يقول : علمني الإسلام ، والمفتي في حلال أو حرام ، وقيل : هو علم الشهادتين .

« فكتمه » عن أهله .

« ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار » أي أدخل في فيه لجامًا من نار ، مكافأة له على فعله حيث ألجم نفسه بالسكوت في محل الكلام .

فالحديث خرج على مشاكلة العقوبة للذنب ؛ وذلك لأنه سبحانه أخذ الميثاق على الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه .

---

(١) فيض القدير (٦/١٥٤) .

(٢) صحيح : رواه ابن ماجة عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٨٩ .

(٣) صحيح : رواه أحمد، والنسائي، والترمذي، وأبو داود، وابن ماجة، والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٦٠ ، وتخريج المشكاة ٢٢٣ .

وفيه حث على تعليم العلم ؛ لأن تعلم العلم إنما هو لنشره ، ودعوة الخلق إلى الحق ، والكاتم يزاول إبطال هذه الحكمة ، وهو بعيد عن الحكيم المتقن ، ولهذا كان جزاؤه أن يلجم تشبيهًا له بالحيوان الذي سخر ومنع من قصد ما يريده ، فإن العالم شأنه دعاء الناس إلى الحق ، وإرشادهم إلى الصراط المستقيم(١).

وقال ﷺ : « أيما رجل آتاه الله علمًا فكتمه ، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار »(٢).

وقال ﷺ : « من كتم علمًا عن أهله ، أُلجم يوم القيامة لجامًا من نار »(٣).

قال تعالى : ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنًا قليلًا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم** ﴾ [البقرة : ١٧٤].

قال ابن كثير :

إنما يأكلون ما يأكلونه في مقابلة كتمان الحق نار تأجج في بطونهم يوم القيامة ، ولا يكلمهم الله يوم القيامة وذلك لأنه غضبان عليهم ؛ لأنهم كتموا وقد علموا فاستحقوا الغضب(٤).

قال البقاعي :

لما كانوا بعدوا عن مواطن الرحمة ببخلهم بما لا ينقصه الإنفاق أشار إليهم بأداة البعد فقال : ﴿ **أولئك** ﴾، وفي خطاب النبي ﷺ به إشعار بوقوع ذلك من طائفة من أمته حرصًا على الدنيا .

---

(١) فيض القدير (٦/١٤٦) .

(٢) رواه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٧١١ .

(٣) صحيح : رواه ابن عدي في الكامل عن ابن مسعود، وابن حبان في صحيحه والحاكم عن ابن عمرو ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٣٩٣ .

(٤) تفسير ابن كثير ١/٢٩٥ .

﴿ ما يأكلون في بطونهم إلا النَّار ﴾ وفي ذكره بصيغة الحصر نفي لتأويل المتأول ولما قدم الوعيد في الثمن لكونه الحامل على الكتم ، أتبعه وعيد نفس الكتم ، فقال : ﴿ ولا يكلمهم الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي من كلّمه أقبل كل شيء عليه كلامًا يدل على مرضى ؛ لكونهم لم يكلموا الناس بما كتب عليهم .

﴿ ولا يزكيهم ﴾ أي يطهرهم من دنس الذنوب أو يثني عليهم ، أو ينمي أعمالهم بما يحصل لهم من الميثاق في يوم التلاق ، كما يزكي بذلك من يشاء من عباده ؛ لأنهم كتموا عن العباد ما يزكيهم .

﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ لما أوقعوا فيه الناس من التعب ؛ بكتمهم عنهم ما يقيمهم على المحجة السهلة .

﴿ فما أصبرهم على النار ﴾ ما أشد حبسهم أنفسهم ، أو ما أجرأهم على النار التي أكلوها في الدنيا فأحسوا بها في الآخرة .

أوّل مأكلهم نار وآخر أمرهم عذاب وترجمة حالهم عدم المغفرة[1].

ويصور قلم الأستاذ محمد رشيد رضا في المنار حال أولئك الذين كتموا دينهم ، ورفعوا طينهم .

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا   فلا ديننا يبقى ولا ما نرقعُ

يتكلم عن الذين كتموا العلم الإلهي ابتغاء الدنيا من اليهود والنصارى فما حصلوها ، ثم يعرّج على عمومية الآيات فيقول : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنًا قليلًا ﴾ ، أي الذين يخفون شيئًا مما أنزل الله في كتابه ، فلا يبلغونه للناس مهما يكن موضوعه ، أو يخفون معناه عنهم بتأويله ، أو تحريفه ، أو وضع غيره في موضعه برأيهم ، واجتهادهم ، ويستبدلون بما يكتمونه ثمنًا قليلًا من متاع الدنيا الفاني ، كالرشوة والجعل على الفتاوى الباطلة ، أو قضاء الحاجات عند الله تعالى وغير ذلك من المنافع المؤقتة إذ اتخذوا الدين تجارة ، والثمن القليل منه ، ما قاله المفسر من استفادة الرؤساء من المرءوسين ومنه عكسه (قال

---

(١) نظم الدرر (٢/٣٥٣) .

شيخنا) هذا النوع من البيع والشراء في الدين عام في الرؤساء الضالين من جميع الأمم ، ومنه ما كان رؤساء اليهود يلاحظونه زمن التنزيل وهو حفظ ما بيدهم الذي يتوهمون أنه يفوتهم بترك ما هم عليه من التقاليد ، واتباع ما أنزل الله بدلًا منها .

ماذا كان شأن اليهود في زمن البعثة ؟ ذل واضطهاد من جميع الأمم ولا سيما النصارى ، فقد كانوا يسومونهم سوء العذاب ، ومنعوهم من دخول مدينتهم المقدسة ، وأكرهوهم في بعض البلاد على التنصر .

ماذا كان شأن النصارى في زمن البعثة ؟ فقر حاضر ، وذل غالب ، وحجر على العقول ، ومنع للحرية في الرأي والعلم ، وتحكم في الإرادة ، وسيطرة على خطرات القلوب وأهواء النفوس كان هذا عامًّا في كل قطر وكل مملكة ، وكان بين الطوائف بعضها مع بعض حروب تشب ، وغارات تشن ، ودماء تسفك ، وحقوق تنتهك ، وكانوا على هذا كله يتوهمون أن الإسلام سيخرجهم من سعادة إلى شقاء ، ومن نعمة إلى بلاء ، هب أن بعضهم كان له شيء من المال ، وبقية من الجاه ، أليس هو من فخفخة الدنيا الزائلة ، ألم يكن منغصًا بالخوف عليه والمنازعة فيه ؟ هب أنه كان لبعض شعوبهم طائفة من القوة ، ألم تكن تشبه الزوبعة تعصف ولا تلبث أن تزول ؟ نعم إن ما كان يغر هؤلاء وهؤلاء لم يكن موضعًا للغرور ؛ لأنه متاع حقير ، وثمن قليل ، وهو غير قائم على أساس ثابت ، ولذلك زال بظهور الإسلام وانتشاره ، وتقوضت تلك السلطة ، واندكت صروح تلك العظمة ، وأجلي اليهود من جزيرة العرب ، وزال ملك غيرهم من كل بلاد رفضوا فيها دعوة الإسلام ، وهذا شأن الباطل لا يثبت أمام الحق .

وقال المفسرون : إن هذا الحكم يصدق على المسلمين كما يصدق على أهل الكتاب ؛ لأن الغرض تقرير الحكم ، وهو عام كما يدل لفظه ، وكما يليق بعدل الله تعالى رب العالمين .

كل ثمن يؤخذ عوضًا عن الحق فهو قليل ، إن لم يكن قليلًا في ذاته ، فهو قليل في جنب ما يفوت آخذه من سعادة الحق الثابتة بذاتها ، والدائمة بدوام

المحافظة على الحق ، ولو دام للمبطل ما يتمتع به من ثمن الباطل إلى نهاية الأجل – وما هو إلا قصير – فماذا يفعل ، وقد فاتته سعادة الروح ونعيم الآخرة باختياره الباطل على الحق ﴿**فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل**﴾ [التوبة: ٣٨].

وقد يعترض الناظر في التاريخ ما قرره الأستاذ الإمَام في هذا المقام من ذهاب عز الذين قاوموا دعوة الإسلام ، وكتموا الحق من اليهود والنصارى بأن عيشة اليهود كانت بعد الإسلام خيرًا منها قبله ؛ لأنهم كانوا مضطهدين مقهورين بحكم النصارى الشديد وتعصبهم الفاحش ، فساوى الإسلام بينهم ، وبين النصارى والمسلمين ، وأعطاهم كمال الحرية في دينهم ودنياهم فحسنت حالهم في الشرق والغرب وكثر ما بأيديهم ولم يقل ، وأن المسلمين لم يقووا على جميع نصارى أوربا فبقي لكثير من الممالك سلطانها وما تتمتع به ، وكذلك بعض الممالك الوثنية وهم أعرق في الباطل من النصارى ؟.

والجواب عن ذلك أن يهود الحجاز هم الذين كانوا يؤذون النبي ﷺ ، ويكتمون ما عرفوا من نعته ويظاهرون المشركين عليه ، فهم الذين قاوموا الحق بالباطل ، فلقوا جزاءهم الذي تم بجلائهم من جزيرة العرب أو الحجاز .

أما يهود سورية وغيرها (كالأندلس) فقد كانوا يساعدون الدعوة الإسلامية ودعاتها حتى من لم يؤمن منهم ليخلصوا من ظلم النصارى واستبدادهم فيهم ، فنالوا من حسن الجزاء بمقدار قربهم من الحق ، ولو آمنوا وقبلوا الحق كله ، وأيدوه لذاته ظاهرًا وباطنًا ؛ لأوتوا أجرهم مرتين ، وجزاءهم ضعفين ، وكانوا أئمة وارثين وسادة عالين .

وأما الذين سلم لهم ملكهم ومتاعهم فلم يكن لهم ذلك بضعف حق الإسلام عن باطلهم ، فإن الذين حاولوا فتح ما وراء الأندلس من أوربا لم يكن غرضهم كلهم نشر دعوة الحق ، وإنما كان غرضهم عظمة الملك والغنائم ، وليس من الحق أن يعتدي قوم على قوم لأجل سلب ما في أيديهم ، فإن المعتدي مبطل ، والمدافع محق في الدفاع عن نفسه وبلاده ، وإن كان مبطلًا في عمله واعتقاده ، فهو جدير بأن يكون له الظفر إذا أخذ أهبته ، وأعد له عدته .

ثم يقول الشيخ محمد رشيد رضا ناقلًا عن شيخه محمد عبده في وصف حال اليهود : كانوا يشعرون بجاذبين متعاكسين : جاذب الحق الذي عرفوه ، وجاذب الباطل الذي ألفوه ، ذلك يحدث لهم هزة وتأثيرًا ، وهذا يحدث لهم استكبارًا ونفورًا ، وقد غلب عقولهم ما عرفوا ، وغلب قلوبهم ما ألفوا ، فثبتوا على ما حرفوا وانحرفوا ، وصاروا إلى حرب عوان ، بين العقل والوجدان ، يتصورون الخطر الآجل ، فيتنغص عليهم التلذذ بالعاجل ، ويتذوقون حلاوة ما هم فيه ، فيؤثرونه على ما سيصيرون إليه ، أليس هذا الشعور بخذل الحق ونصر الباطل ، واختيار ما يفنى على ما يبقى ، نارًا تشبُّ في الضلوع ؟ أليس ما يأكلونه من ثمن الحق ضريعًا لا يسمن ولا يغني من جوع ؟ بلى فإن عذاب الباطن أشد من عذاب الظاهر كما يومىء إليه قول الشاعر :

دخول النارِ للمهجورِ خيرٌ ... من الهجرِ الذي هو يتقيهِ
لأن دخوله في النار أدنى ... عذابًا من دخول النَّارِ فيهِ[(١)]

يقول صاحب الظلال رحمه الله :

والتنديد بكتمان ما أنزل الله من الكتاب كان المقصود به أولًا أهل الكتاب ، ولكن مدلول النص العام ينطبق على أهل كل ملة يكتمون الحق الذي يعلمونه ، ويشترون به ثمنًا قليلًا ، إما هو النفع الخاص الذي يحرصون عليه بكتمانهم للحق ، والمصالح الخاصة التي يتحرونها بهذا الكتمان ، ويخشون عليها من البيان ، وإما هو الدنيا كلها – وهي ثمن قليل حين تقاس إلى ما يخسرونه من رضا الله ، ومن ثواب الآخرة .

﴿ **ما يأكلون في بطونهم إلا النار** ﴾ [البقرة : ١٧٤].

وكأنما هذا الذي يأكلونه من ثمن الكتمان والبهتان نارٌ في بطونهم !.

وكأنما هم يأكلون النار ! وإنها لحقيقة حين يصيرون إلى النار في الآخرة ، فإذا هي لهم لباس ، وإذا هي لهم طعام !.

---

(١) تفسير المنار (٢/١٠٢-١٠٦) .

وجزاء ما كتموا من آيات الله أن يهملهم الله يوم القيامة ، ويدعهم في مهانة وازدراء ، لا كلام ولا اهتمام ولا تطهير ولا غفران .

﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة ﴾ [البقرة : ١٧٥] .

فكأنما هي صفقة يدفعون فيها الهدى ويقبضون الضلالة ! ويؤدون المغفرة ويأخذون فيها العذاب ، فما أخسرها من صفقة وأغباها ! ويالسوء ما ابتاعوا وما اختاروا ! وإنها لحقيقة ، فقد كان الهدى مبذولًا لهم فتركوه ، وأخذوا الضلالة . وكانت المغفرة متاحة لهم فتركوها واختاروا العذاب ..

﴿ فما أصبرهم على النار ﴾ [البقرة : ١٧٥] .

فيالطول صبرهم على النار ، التي اختاروها اختيارًا ، وقصدوا إليها قصدًا .

فياللتهكم الساخر من طول صبرهم على النار !!

وإنه لجزاء مكافىء لشناعة الجريمة ، جريمة كتمان الكتاب الذي أنزله الله ؛ ليعلن للناس ، وليحقق في واقع الأرض ، وليكون شريعة ومنهاجًا ، فمن كتمه فقد عطله عن العمل ، وهو الحق الذي جاء للعمل .

﴿ ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق ﴾ [البقرة : ١٧٦] .

فمن فاء إليه فهو على الهدى ، وهو في وفاق مع الحق ، وفي وفاق مع المهتدين من الخلق ، وفي وفاق مع فطرة الكون وناموسه الأصيل .

﴿ وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد ﴾ [البقرة : ١٧٦] .

شقاق مع الحق ، وشقاق مع ناموس الفطرة ، وشقاق فيما بينهم وبين أنفسهم ، ولقد كانوا كذلك ، وما يزالون ، وتلحق بهم كل أمة تختلف في كتابها . فلا تأخذ به جملة ، وتمزقه تفاريق .. وعد الله الذي يتحقق على مدار الزمان واختلاف الأقوام ، ونحن نرى مصداقه واقعًا في هذا العالم الذي نعيش فيه[١].

ويرحم الله شيخ الإسلام عبد الله بن المبارك حين يقول :

---

(١) الظلال (١/١٥٧-١٥٨) .

رأيت الذنوب تميت القلوبَ ويورثك الذلَّ إدمانُها
وترك الذنوب حياة القلوب وخيرٌ لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانُها
لقد رَتع القوم في جيفةٍ يبين لذي العقل إنتانُها

من تعلم العلم للدنيا :

قال رسول الله ﷺ : « من طلب العلم ليباهي به العلماء ، أو ليماري به السفهاء ، أو ليصرف به وجوه الناس إليه فهو في النار »(١).

وقال ﷺ : « من طلب العلم ليجاري به العلماء ، أو ليماري به السفهاء ، أو ليصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله في النار »(٢).

وقال ﷺ : « من تعلم العلم ليباهي به العلماء ، أو يماري به السفهاء ، أو يصرف به وجوه الناس إليه ، أدخله الله جهنم »(٣).

وقال ﷺ : « من تعلم علمًا مما يُبتغى به وجه الله ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عوضًا من الدنيا ، لم يجد عرْف الجنة يوم القيامة »(٤).

قال المناوي :

« من طلب العلم ليجاري به العلماء » أي يجري معهم في المناظرة والجدال ؛ ليظهر علمه رياءً وسمعة « أو ليماري به السفهاء » أي يحاججهم ويجادلهم مباهاة وفخرًا .

---

(١) حسن : رواه ابن ماجة عن ابن عمر ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٢٥٨ .

(٢) حسن : رواه الترمذي عن كعب بن مالك ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٢٥٩ .

(٣) صحيح : رواه ابن ماجة عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٠٣٤ .

(٤) صحيح : رواه أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجة ، والحاكم عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٠٣٥ ، وتخريج اقتضاء العلم ١٠٢ .

قال القاضي : المجاراة المفاخرة من الجري ؛ لأن كلًّا من المتفاخرين يجري مجرى الآخر ، والمماراة المحاجة والمجادلة من المرية وهو الشك ، فإن كلًّا منهما يشك فيما يقوله صاحبه أو يُشكِّكه بما يورده على حجته ، أو من المريء ، وهو مسح الحالب الضرع ليستنزل منه اللبن ، فإن كلًّا من المتناظرين يستخرج ما عند صاحبه ، والسفهاء الجهال فإن عقولهم ناقصة مرجوحة بالإضافة إلى عقول العلماء .

« أدخله الله النار » جزاء بما عمل .

وإنما كان المراء وما معه سببًا لدخولها لظهور نفوسهم في طلب القهر والغلبة ، وهما من صفات الشيطنة[1].

وقال المناوي أيضًا :

قال ابن عطاء : جعل الله العلم الذي علمه من هذا وصفه حجة عليه ، وسببًا في تحصيل العقوبة لديه ، ولا يغرنَّك أن يكون به انتفاع للبادي والحاضر ، وفي الخبر : « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » . ومثل من يتعلم العلم لاكتساب الدنيا والرفعة فيها كمن رفع العذرة بملعقة من الياقوت ، فما أشرف الوسيلة وما أخس المتوسل إليه .

قال السيد السمهودي : وقد جرت العادة الإلهية بتمييز هذا القسم من المنتسبين للعلم عمن يعتني به منهم ، بإظهار ما يخفيه من مضمراته ، وكشف ما يستره من عوراته ، سيما المنهمك في الدنيا ، المستعبد لأهلها ﴿ **ليميز الله الخبيث من الطيب** ﴾ [الأنفال : ٣٧] أوحى الله إلى داود لا تجعل بيني وبينك عالمًا مفتونًا فيصدك عن محبتي ، أولئك قطاع الطريق على عبادي[2].

فطالب العلم رياء وجدالًا وشهرة يحقره الله بأن يكون من أهل النار جزاءً وفاقًا ، ومن صرف العلم عمًّا أريد له وهو الجنة وطلب الدار الآخرة ؛ صُرِف

---

(١) فيض القدير (١٧٦/٦) .

(٢) فيض القدير (١٠٧/٦) .

عن عرف الجنة جزاءً وفاقًا .

والجزاء من جنس العمل .

يقول الفضيل بن عياض : لأن أطلب الدنيا بطبل ومزمار خير لي من أن أطلبها بعمل الآخرة .

فيا أخي ، لا تتعلم العلم إلا إذا نويت العمل به ، وإلّا فهو وبال عليك يوم القيامة ، والعلم يهتف بالعمل ، فإن أجابه حلّ وإلا ارتحل .

يقول الإمام ابن قيم الجوزية في قوله ﷺ : « إن العالم ليستغفر له من في السمٰوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء » .

إنه لما كان العالِم سببًا في حصول العلم الذي به نجاة النفوس من أنواع المهلكات ، وكان سعيه مقصورًا على هذا ، وكانت نجاة العباد على يديه - جوزي من جنس عمله ، وجُعل مَنْ في السمٰواتِ والأرض ساعيًا في نجاته من أسباب الهلكات باستغفارهم له ، وإذا كانت الملائكة تستغفر للمؤمنين ، فكيف لا تستغفر لخاصتهم وخلاصتهم . وقد قيل : إن مَن في السمٰوات ومن في الأرض ، المستغفرين للعالم ، عام في الحيوانات ؛ ناطقها وبهيمها ، طيرها وغيره ، ويؤكد هذا قوله : « حتى الحيتان في الماء وحتى النملة في جحرها » .فقد قيل : سبب هذا الاستغفار أنّ العالم يعلّم الخلق مراعاة هذا الحيوانات ، ويعرّفهم ما يحلّ منها وما يحرم ، ويعرفهم كيفية تناولها واستخدامها ، وركوبها والانتفاع بها ، وكيفية ذبحها على أحسن الوجوه وأرفقها بالحيوان ، والعالم أشفق الناس على الحيوان ، وأقومهم ببيان ما خُلق له . وبالجملة فالرحمة والإحسان التي خلق بهما ولهما الحيوان ، وكتب لهما حظُّهما منه، إنما يُعرف بالعلم، فالعالم معرّف لذلك فاستحق أن تستغفر له البهائم . والله أعلم[1].

فرضي الله عن العلماء جزاء خدمة دينهم ، وإرضاء ربهم .

وما أُغمضت منهم العيون لوداع هذه الدار الفانية حتى تلقتهم رحاب

(١) مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية (١/٦٤-٦٥) .

الخلد ، واستقبلتهم حورها في الدار الباقية ، فلَقُوا التكريم والهناء ، ونسوا الشقاء والبلاء ، فكان لهم كما قيل :

هناء مَحَا ذاك العزاءَ المقدَّما ... فما عبس المحزون حتى تَبسَّمَا[1]

وللّهِ ما أحلى قول الجرجاني :

يقولون لي : فيك انقباضٌ وإنما ... رأَوْا رجلًا عن مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحجَمَا
أرى النّاسَ من داناهُمُ هانَ عندهم ... ومن أكرمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكرِما
ولم أقضِ حَقَّ العلم إن كنتُ كلّما ... بدا مَطْمَع صَيَّرتُه لي سُلَّمَا
وما زِلتُ مُنحازًا بِعِرْضي جانبًا ... عن الذُّلِّ أعتَدُّ الصِّيانة مَغْنَمَا
إذا قيل : هذا مَنْهَل قلتُ : قد أَرَى ... ولكنَّ نَفْسَ الحُرِّ تَحتَمِلُ الظَّمَا
أُنزِّهُهَا عن بعض ما لا يَشينها ... مَخَافَة أقوال العِدَا : فيمَ أو لِمَا؟
فأصْبحُ عن عَيْبِ اللئيم مُسلَّمًا ... وقد رُحْتُ في نفس الكريم مُعَظَّما
وإني إذا ما فاتني الأمرُ لم أَبِتْ ... أُقلِّبُ كَفِّـي إِثْـرَهُ مُتنَدِّمـا
ولكنه إن جاء عَفْوًا قبِلْتُـه ... وإن مالَ لم أُتبِعْهُ : هَلَّا ولَيْتَمَا
وأَقبِضُ خَطْوي عن حُظوظٍ كثيرةٍ ... إذا لم أَنَلْها وافِر العِرضِ مُكْرَما
وأُكرِمُ نفسي أن أُضاحِكَ عابسًا ... وأنْ أَتَلقَّى بالمديحِ مُذَمَّمـا
وكم طالبٍ رِقِّي بنُعْمَاهُ لم يَصِل ... إليه وإن كان الرئيس المُعَظَّما
وكم نِعمةٍ كانت على الحُرِّ نِقْمَةً ... وكم مَغْنمٍ يَعتدُّهُ الحُرُّ مَغْرَما
ولم أَبتذِل في خِدمة العلم مُهْجَتي ... لأَخدُمَ من لاقَيْتُ لكِنْ لأُخْدَما
أَأَشْقَى به غَرْسًا وأَجنِيهِ ذلةً ... إذًا فاتِّبَاعُ الجهلِ قد كان أحزما
وإني لَرَاضٍ عن فَتى مُتعَفِّفٍ ... يَرُوحُ ويَغْدُو ليس يملِكُ دِرهَما
يَبِيتُ يُراعي النجم من سُوءِ حالِهِ ... ويُصبحُ طَلْقًا ضاحِكًا مُتَبَسِّما
ولا يَسأَلُ المُثْرِين ما بأكُفِّهِمْ ... ولو مات جُوْعًا عِفَّةً وتكرُّما

---

(١) صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل ، لعبد الفتاح أبي غدة ص٣٧٨-٣٨٨ ، الناشر مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب .

فإن قلتَ : زَنْدُ العلمِ كابٍ ، فَإنما كَبَا حين لم نَحرُسْ حِماهُ وأظلَما
ولو أنَّ أهلَ العلمِ صانوهُ صانَهُمْ ولو عَظَّمُوه في النفوسِ لعُظِّما
ولكنْ أهانوهُ فهانُــوا ودَنَّسُوا مُحيَّاهُ بالأطماع حتى تجهَّما !
وما كلُّ بَرْقٍ لاحَ لي يستفِزُّني ولا كلُّ من لاقَيْتُ أرضَاهُ مُنْعِما
ولكن إذا ما آضطرَّني الضُّرُّ لم أبِتْ أُقلِّبُ فِكري مُنْجِدًا ثم مُتْهما

من خدم العلم خدمه الناس .

من خدم المحابر دانت له المنابر .

من صان العلم صانه العلم .

ومن أهان العلم هان على الناس .

* * *